

بقايا الفصحاح

كلّما مررت بطائفةٍ من بقايا الفصحاح دوّنتها في دفترتي ، لأن هذه البقايا تدلّتنا على أشياء كثيرة من حياة لغتنا ، فقد تمكّنت مثلاً من أن نعرف أن اللفظ الفلاني الذي لا يزال شائعاً في أيّامنا على ألسن العامّة ، ونحن نحسبه عامياً ، قد شاع في القديم على ألسن البلغاء من الكتاب والشعراء ، وإذا كنّا نحرض على رفع لغتنا العامّة إلى آفاق اللغة الفصيحة فقد يعيننا على هذا الحرص التفتيش عن بقايا الفصحاح واستعمالها في كتاباتنا وأحاديثنا ، وعلى هذا الشكل فأنّنا نربط حاضر لغتنا بماضيها حتى لا تنفصم عرى هذا الحاضر والماضي ، وفضلاً عن ذلك كلّها فأنّنا نجد في الكشف عن طوائف من بقايا الفصحاح مظاهر انتقال الألفاظ من معنى إلى معنى على تراخي السنين ، فقد يكون للفظٍ من الألفاظ معنى في القديم ، فإمّا أن يحافظ في الحديث في اللغة العامّة على معناه القديم وإمّا أن ينتقل إلى معنى آخر ، ثم قد نجد في بعض الأحيان أن الألفاظ قد تختلف معانيها على اختلاف الأذهان التي تستعملها ، وقد نجد أخيراً أن لفظاً من الألفاظ الفصيحة قد بطل استعماله في لغة الخاصة أو قلّ ، وقد ظلّ مستفيضاً في لغة العامّة ، وقد يكون في ضرب الأمثال توضيح لكل ما ذكرت .

من بقايا الفصحاح : فلان مُنهنّه ... لعب به ولعب عليه ... فتح عليه باباً ... مسكه على الغداء ... فلان يفوش ، وإني لأقتصر في هذا المقال على هذه الموادّ دون غيرها .

من الألفاظ التي انتقلت معانيها بمض الانتقال من وجه إلى وجه لفظ :
 نهنه ، فكثيراً ما نسمع قول العامة والخاصة : فلان منه من شدة البكاء
 أو من شدة التعذيب أو من شدة الإعياء ، في معجمات اللغة : نهنه عن
 الأمر فتنه كفته وزجره فكف ، وقد وردت هذه المادة في طائفة من
 شعر المتقدمين أمثال حسّان بن ثابت وجري والفرزدق وديك الجن .
 فمن قول حسّان :

وشربها فتركنا ملوكاً وأسدأ ما ينهنا اللقاه
 فالنهية في هذا البيت معناها : الزجر والكف وهو المعنى المطابق لما جاء
 في معجم اللغة .

ومن قول جرير :

أبي حنيفة نههوا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا
 فلم يخرج جرير في استعمال هذه المادة عن أصل معناها .
 وكذلك فعل الفرزدق في قوله :

لقد حبس القسري في سجن واسطٍ فتي شيطمياً ما ينهه الزجر
 إلا أن المبرّد لما فسّر : ينهه في هذا البيت قال : أي ما يجرّكه .
 وأخيراً هذا بيت ديك الجن :

نهنت الخمسون من شدّتي وضيقت خطوي بمد اتساع
 فان قوله : نهنت من شدّتي معناه : كفتت من هذه الشدة ، فلم يبق لي
 من القوة وأنا ابن خمسين ما كان لي منها في نضارة الشباب .
 فليس في هذه المادة التي وردت في شعر المتقدمين المعنى الذي تريده
 العامة في يومنا هذا ، ليس فيها شيء يدلّ على الإعياء أو التعذيب مثلاً ،
 فقد تحوّل معناها على تعاقب السنين عن أصله اللغوي ، فانتقل من وجه

إلى وجهه ، وهكذا نجد أن من معاني بعض الألفاظ ما لا يثبت على أصله ، وقد يكون البحث عن عوامل هذا التحول من طرائف الأمور .

أمّا المادّة التي اختلف معناها في ذهن رجلين استعمالها في القديم فهي مادّة : لعب به ، ورد هذا الفعل في أخبار بلال بن رباح في تاريخ ابن عسّاكر ، إلاّ أن الخبر طويل لا سبيل إلى ذكره بحذافيره ، وقد تكون الفائدة في آخر الخبر . كان بلال مؤذن الرسول ﷺ يرعى على عبد الله بن جدعان بمكة غنمه قبل إسلامه ، ثم أسلم وكنم إسلامه ، فدخل يوماً مكة وقريش في ظهرها لا يعلم ، فأتى الأصنام فجعل يبصق عليها ، فطلبته قريش ، فهرب حتى دخل دار سيده عبد الله بن جدعان فاخفى فيها ، ثم دفعه ابن جدعان لأبي جهل وأمّية بن خلف وقال : شأنكما به فهو لكما فاصنما به ما أحببتما ، فخرجا به إلى البطحاء يبسطانه على رمضائها ويجملان رحاها على كتفيه ويقولان : اكفر بحمّد ، فيقول : لا ، ويوحّد الله ، فيينا هما كذلك إذ مرّ بهما أبو بكر فقال : ماتريدان بهذا الأسود ، والله ماتبلغان به ثأراً ، فقال أمّية بن خلف لأصحابه : ألا ألعبنكم بأبي بكر لعبة ما لعبها به أحد ، ثم تضاحك وقال : هو على دينك يا أبا بكر فاشتره منّا ، فاشتراه أبو بكر ... إلى آخر الخبر .

فالذي يعنينا من هذا الخبر قول ابن خلف : ألا ألعبنكم بأبي بكر لعبة ... في اللغة فلان لُعبه أي أحرق يسخر منه ، ورجل لعبة : يلعب به ، ولكن هل أراد ابن خلف السخرية في هذا المقام ، معاذ الله أن يكون اللعب بأبي بكر من هذا القبيل ، فإن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أجلّ من أن يجترىء أحد على السخرية منه ، فاللعب في ذهن أمّية بن خلف لم يكن معناه السخرية ، وبقية الخبر تثبت ذلك ، فإن ابن خلف أراد باللعب نوعاً من الحيلة والتشديد على أبي بكر في شراء بلال ، وقد حمّله على هذا كله

طمعه الشديد ، وإثباتاً لهذا القول لا بدّ من ذكر بقية الخبر ، لما قال ابن خلف : هو على دينك يا أبا بكر فاشتره منّا ، قال أبو بكر : نعم ، فقال : أعطني عبدك نسطاماً ، ونسطاس عبد لأبي بكر ، حدّاد يؤدي خراجة نصف دينار ، فقال أبو بكر : إن فعلتُ تفعل ، فقال : نعم ، فقال : قد فعلت ، فتضاحك وقال : لا والله تعطيني معه امرأته ، فقال : إن فعلتُ تفعل ، قال : نعم ، قال : فذلك لك ، قال : فتضاحك وقال : لا والله حتى تعطيني ابنته مع امرأته ، قال : إن فعلتُ تفعل ، قال : نعم ، قال : قد فعلت ، قال : فتضاحك وقال : لا والله حتى تزيدني معه مائتي دينار ، قال أبو بكر : أنت رجل لا تستحي من الكذب ، قال : لا واللات والعزى لئن أعطيتني لأفعلن ، فقال هي لك ، فأخذه .

لا ريب في أن لب به في الخبر المتقدم لا يشتمل على شيء من السخرية وإنما ينطوي هذا الفعل على حيلةٍ مزوجةٍ بيمض الدالّة ، وورود فعل تضاحك أربع مرات يؤيد ذلك ، فاللب في ذهن ابن خلف خالٍ من السخرية ، أي من معناه اللغوي ، واختلاف معاني الألفاظ في أذهان مختلفة قد يؤدي في أكثر الأوقات إلى شيء من سوء التفاهم ، فكل واحدٍ يفسّر اللفظ حين يقذف به على قدر نيته ، فيخرج به عن معناه الثابت ويجعل له في ذهنه معنى خاصاً وهذا أمر نشهده في أحاديثنا الخاصة وفي مجالسنا ، فيكثر في خلال هذه الأحاديث والمجالس سوء التفاهم فيضطر كل واحدٍ إلى الاعتذار مرّة ، وإلى حسن التأويل مرّة .

ولكن إذا لم يكن لفعل : لب به في ذهن أميّة بن خلف معنى السخرية فإن له في ذهن ابن أبي عتيق هذا المعنى نفسه ، كان ابن أبي عتيق من نسائك قرين وظرفاتهم ، على نحو ما ورد في كامل البرود ، بل كان قد

بذمهم ظرفاً ، فمن طريف أخباره أنه سمع وهو بالمدينة قول ابن أبي ربيعة :
 فما نلت منها محرماً غير أننا كلالنا من الثوب المطرف لابس
 فقال : أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ، فأبي محرم ؟ فركب بغلته متوجهاً إلى
 مكة ... إلى آخر الخبر ، فلا شك في أن قول ابن أبي عتيق في هذا
 المقام : أبنا يلعب ابن أبي ربيعة يشتمل على معناه اللغوي وهو السخرية ،
 فليس فيه شيء من الحيلة أو الدالّة أو الكذب ممّا ورد في خبر بلال .
 وقد وجدت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة خبراً استعملت فيه
 لفظة : تلعبه بدلاً من لعب به وهذا هو الخبر :

جاء فتيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء ، فقال لهم : ما جاء بكم يا خبيثاء !
 قالوا : جئناك نتحدث ، قال : كذبتهم ، ولكن قلم : كبر الشيخ فتلعبه
 عسى أن نأخذ عليه سقطاً !

وقد فسر الذين طبعوا الكتاب في باريز : تلعبه بقولهم : نلهو به ،
 إلاّ أني لم أجد في معجم الفيروزآبادي هذه المادة : تلعبه بمعنى لعب به
 وإنما جاءت : تلعب لازمة بمعنى : لعب ، والأمر يحتاج إلى زيادة في التحقيق .
 ولكن هل حافظت هذه المادة في لغة العامة عصرنا هذا على معناها
 القديم ، من أمثال العامة في دمشق : جدي لعب بعقل تيس .. وهم يريدون
 بذلك أن الصغير ضحك على الكبير ، وقد تختلف وجوه هذا الضحك ،
 فإمّا أن الصغير قد ألقى الكبير في ورطة لا سبيل إلى النجاة منها وإمّا
 أنه جرّ هذا الكبير إلى أمر جعل الناس يسخرون منه ، أو ما شابه ذلك .
 وقد تمددني العامة فعل لعب بحرف على فتقول : لعب عليه ، وأكثر ما تستعمل
 هذه المادة في المواضع التي تشتد فيها الحاجة إلى ضرب من الحيلة كالاتخابات
 ونحوها ، فاذا قالوا : لعب عليه أرادوا أنه خدعه فدفعه إلى تصديقه ،
 وهو لا يشمر بهذه الخديعة ، أو أنه قد شمر بها بعد حين ، وقد يكون

بعض الفرق بين : لمب به ولمب عليه ، فالأولى تتضمن السخرية ، والثانية قد تتضمن الحيلة والخديعة ، على أن المادة واحدة ، ولكن حرف التعدية فد جعل في الظاهر بعض الفرق في المعنى ، وكيف كان الأمر فان قولنا : لمب به ولمب عليه لا يزال شائماً على ألسن العامة .

ومن التراكيب التي لا يزال نجد لها أثراً يوماً هذا قولهم : فتح على نفسه باباً ، فالعامة تريد بذلك أنه ألقى بنفسه في أمر فيه كثير من التعب ، فالحكومة مثلاً في فعلها كذا وكذا فتحت على نفسها باباً أي جرّت التعب إليها . نجد في كامل المبرّد أحياناً للنميري يجب بها جريراً ، في جملتها هذا البيت :

وإني إذ أمبّ بها كلياً فتحت عليهم للخسف باباً
وهكذا زى أن بعض كلام جرير لا يزال يجري على ألسن العامة بمد الأحقاب الطويلة :

وكما بقيت لجرير آثار في لغة العامة ، فكذلك بقيت للمتني آثار ، جاء في شعره في بعض قصائده :

جوعان يأكل من زادي ويمسكي لكي يقال عظيم القدر مقصود
وقد شرح اليازجي قول المتني : ويمسكي ، على هذا الوجه : هو ويمسكي عنده لينمدح بقصدي إياه .

كثيراً ما نسمع في لغة العامة والخاصة في دمشق قولهم : مسكه على الغداء أو على العشاء ، فقد يزور أحدنا صديقاً له في وقت الغداء أو في العشاء فيمسكه ليتفدّى أو يتمشّى معه ، فهم يمدّون هذه المادة بعلى ، وقد وردت في اللغة ثلاثية ورباعية : مسك به مثل أمسك ، فالشائع في اللغة العامة الثلاثي كما أن الشائم حرف التعدية على بدلاً من الباء ، ولا يعد أن المتني أراد من قوله : ويمسكي ، .. يمسكي على الطعام على نحو قولنا

في دمشق ، ولست أرى فرقاً بين أن يمسه كافور ليمدح بقصده إيتاه
وبين أن يمسه على الطعام ، على أنني أرى تفسير المسك في هذا المقام
بالجس على الطعام أبلغ في المعنى ، فكافور يأكل من زاد المتني ويمسه
على الطعام ، أي على زاده نفسه .

ومن طريف المشاهدات أن تموتَ لفظة في لغة الكتّاب والشعراء
أو يقلّ استعمالها وأن تعيش هذه اللفظة في لغة العامة ، بقولون في دمشق :
فلان يفوش كثيراً وهم يريدون بذلك أنه إذا حدث بالغ في حديثه عن نفسه ،
وجاوز الحد في التنويه بكرمه أو شجاعته وأمثال هذه الأمور ، ماذا
نجد في اللغة : فاش الرجل افتخر وتكبر ورأى ما ليس عنده وهو فيّاش ،
وفي بعض شعر المتني :

إذا ذكرتَ مواقفه لحافٍ وشيكاً فما ينكس لا تقاش
تزيل مخافة المصبور عنه وتلهي ذا الفياش عن الفياش

فالفياش في هذا الشعر المفاخرة كالمفايشة ، فقد جاء هذا الفعل في شعر
المتني من باب فاعل ، وسواء استعملت مادة فاش أم استعملت مادة فاش
فإن معنى هذا الفعل الفصيح لا يختلف عن المعنى العامي في أيّامنا ، فالعنيان
الفصيح والعامي يدلان على مجاوزة الحد في الادعاء والمفاخرة وما شابه
ذلك ، أمّا الطريف في هذا كله أن تذهب المفايشة من لغة الكتّاب
والشعراء في عصرنا هذا وأن تبقى : فاش في لغة العامة ، وهي فصيحة ،
ولكن مضارعها الفصيح : يفيش ، ، أمّا العامة فإنها تقول : يفوش ،
وكيف كان الأمر فقد بقيت : فاش في لغة العامة وماتت أو كادت تموت
في اللغة الفصحى .

سفيان جبري

